المجلة العربية للعلوم الانسانية ـ العدد الثامن ـ المجلد الثاني ـ ص ص (٧٨ ـ ٨٧)

تجربة الأيام لدى المعمرين من شعراء صدر الاسلام

سامي مكي العاني
قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت

ملخص

تهدف هذه الدراسة المختصرة إلى تتبع التجارب الفنية في أشعار المعّمرين الاسلاميين في أيامهم الأخيرة وإلى إبراز الصور الرائعة التي رسمتها ريشة أولئك الفنانين من الشعراء المخضرمين بعد أن غنيت تجاربهم ، وتعمقت نظراتهم في الحياة ، لتعبّر عن واقع حياتهم ، وحقيقة أحاسيسهم .

وكان جل الاعتماد فيها على النماذج الشعرية التي توزعت بين المصادر الأدبية والتاريخية ، لأن الأشعار أصدق الوثائق وأغنى التجارب .

وقد تجاوزت تلك النماذج العشرين نصا شعريا لثمانية عشر شاعراً .

وقد توصلت الدراسة إلى افتقار تلك الأشعار إلى النظرة الإسلامية الجديدة التي أشاعها الإسلام في نفوس أتباعه ، حيث لم يستطع هؤلاء الشعراء تمثل أفكار الاسلام الجديدة بشأن حقيقة الحياة والموت .

المعمَّرون من الشعراء هم الشيوخ الذين طالت أعمارهم ، وامتدت بهم الحياة ، فأدركوا أجيالاً متعاقبة ، وعاصروا أحداثاً متتابعة ، فانطلقت ألسنتهم بالأشعار التي أودعوها مُرَّ شكواهم من طول الحياة ، وعبّروا فيها عن سوء المنقلب والمصير الذي وصلوا إليه .

وقد حدّد بعض الشعراء الجاهلين عمر المعمَّر بالسبعين ، فقال :

يا أيُّها الرجل الموكّل بالصبا فيمَ ابن سبعين المعمَّر من دَدَ[1]

ولكن العرب لا تعدُّ من الأعمار الطويلة إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها . (الابشيهي : ٢/ ٣٧)

وقد تحدّث القرآن الكريم عن تلك الفترة من حياة المعمرين ، فرسم للمعمر صورة شبيهة بصورة الصبي الصغير ، من حيث ضعف جسده ، وقلة عقله ، وخلوه من الفهم ، قال تعالى : « ومَنْ نُعمِّره ننكِّسه في الخَلقُ أفلا يَعقلون » (سورة ياسين : ٦٨)

قال الطبري : وتنكيس الخلق ، قلبه وجعله على عكس ما خلقه أولاً ، وهو أنه خلقه على ضعف في جسد ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعله يتزايد وينتقل من حال إلى حال إلى أن يبلغ أشدّه ، وتستكمل قوته ويعقل ويعلم ماله وما عليه . فإذا انتهى نكسه في الخلق ، فيتناقص حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبي . (الطبري : ٧/ ٣٤٤)

وقال تعالى : « ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذلِ العُمر ، لكيلا يَعلم من بعدِ علمٍ شيئاً » (سورة النحل : ٧٠)

قيل : الى أخسه وأحقره ، لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم الذي يصير فيه الانسان في حالة تشبه حال الطفولة في النسيان ، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع نسيانه فلا يعلمه إن سُئل عنه . (الزمخشري : ٢/ ٦٢٠)

قال الامام علي (رض) : أرذل العمر خمس وسبعون سنة . (إبن كثير : ٢/ ٥٧٧)

وكان الرسول (ص) يستعيذ من الهرم .[2] .

ولو تتبعنا أشعار هؤلاء المعمرين لاستطعنا أن نلمح تجارب وصوراً تتكرر في كثير من أشعارهم .

ومن أبرز تلك التجارب والصور إدراكهم العصور المختلفة ، والقرون الغابرة ، والأمم البائدة ، والأحداث الموغلة بالقدم ، كذى القرنين وتبّع ، يقول شريح بن هانيء بن يزيد بن نهيك مرتجزاً قبل أن يقتل غازيا مع عبد الله بن أبي بكرة بسجستان : (إبن الأثير : ٢/ ٣٩٦ ، العسقلاني : ٢/ ١٦١)

أصبحت ذا بتّ أقاسي الكبرا قد عشت بين المشركين أعصرا
ثُمَّت أدركت النبيّ المنذرا وبعده صدِّيقه وعُمرا
ويوم مَهران ويوم تَسترا والجمع في صفيِّنهم والنَّهرا[3]

وقال عمرو بن حمة الدوسي : (العسقلاني : ٢/ ٥٢٦)

كبـرت وقـد طال العمـر منـي كأنني سليم أفـاعٍ ليلـه غـير مودع
ومـا السقـم أبلانـي ولـكن تتابعت عليّ سنـون من مَصيف ومربع

إلى أن يقول :

أخبّـر أخبـار القـرون التـي مضت ولا بدّ يومـاً أن أطـار لمصرعي

وقال لبيد بن ربيعة العامري : (لبيد بن ربيعة : ١٧٠)

أليس ورائـي إن تراخـت منيّتي لزوم العصـا تحُنـى عليهـا الأصابع
أخبّـر أخبـار القـرون التـي مضت أدبّ كأنـي كلما قمـتُ راكع
فأصبحـت مثـل السيف غيّر جفنه تقـادم عهـد القـين والنصـل قاطع

وحين أُدخِل عرام بن المنذر بن زيد الطائي على الخليفة عمر بن عبد العزيز ليكتب في الزمنى قال له عمر : ما زمانتك هذه ؟

فأنشد قائلا : (العسقلاني : ٣/ ١٠٥)

والله ما أدري أأدركت أمة على عهـد ذي القرنـين أم كنـت أقدما ؟
متـى تنزعـا عنـي القميص تبينا جآجـيء لم يكسـين لحما ولا دما

ومن تجاربهم الانسانية الصادقة ، وصورهم الواقعية الرائعة شعورهم بالغربة ، وإحساسهم بالوحدة الموحشة ، بعد أن غيّبت الأرض جميع إخوانهم ، واختطف الموت كل أقرانهم واخوانهم ، فعندما ما وفد عمرو بن عامر السلمي على معاوية ، وهو يرتعش كبراً قال له معاوية : كيف تجدك ؟

قال : أجتنبت النساء وكُنَّ الشفاء ، وفقدت المطعم وكان المنعم ، وثقلتُ على الأرض ، وقرّب بعضي من بعض ، فنومي سبات ، وفهمي هبّات ، وسمعي تارات . وأنشد :

إذا ذهـب القـرن الـذي أنـت فيهم وخلّفـت في قرن فأنـت غريب
ومـا للعظـام البـاليات من البلى شفـاء ولا للركبتـين طبيب
وإن امـرؤ عاش ستـاً وتسعـين حجّة إلى منهـل من ورده لقريب

فقال له معاوية : فما تريد ؟

قال : عشرة آلاف أقضي بها دَيني ، وعشرة آلاف أقسمها في أهلي ، وعشرة آلاف أنفقها في بقية عمري ، فأعطاه ورحل . (العسقلاني : ٣/ ١١٥)

ويحسّ جعفر بن قرط العامري بثقل الوحدة القاتلة ، فيحاول الفرار منها إلى الموت ، ويعرض ما تبقى من حياته على من يشتريها منه فيقول :

لم يبق يا خذلة من لداتي أبو بنين لا ولا بنات
من مسقط الشمس إلى الفرات إلا يُعد اليوم في الأموات
هل مشتر أبيعه حياتي ؟

(العسقلاني : ٣/ ٣٢٦)

وطالما شكا المعمّرون طول أعمارهم ، وملوا حياتهم ، وسئموا عيشهم الرتيب ، يقول لبيد بن ربيعة العامري :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

(لبيد بن ربيعه : ٣٥)

ويقول ربيعة بن مقروم : (الاصفهاني : ٢٢/ ٩٤)

ولقد أصبت من المعيشة لينها وأصابني منه الزمام بكلكل
يا ذا وذاك كأنه ما لم يكن إلا تذكرّه لمن لم يجهل
ولقد أتت مائة عليّ أعدها حولاً فحولا أن بلاها مبتلي
فإذا الشباب كمبذل أنضيته والدهر يبلي كل جدة مبذل

وتمنّى كثير من المعمرين الموت ، وآثروا مفارقة الحياة لما كانوا يرون فيها من تأذي الأقارب بهم ، وتجنبهم إياهم ، وابتعادهم عنهم ، وفرارهم منهم ، يقول حارثة بن عبيد الكلبي بعد أن حجبه أهله لتقدم سِنّه : (السجستاني : ٩٤)

ألا يا ليتني أنضيتُ عُمري وهل يجُدي عليّ اليوم ليتي
حنتني حانيات الدهر حتى بقيت رذيّة في قعر بيتي
تأذى بي الأقاربُ إذ رأوني بقيتُ ، وأين مني اليوم موتي

وفقد عمارة بن عوف العدواني بصره ، وخرف وأولع بالهذيان ، فقال : (السجستاني ٣٩ ، العسقلاني : ٣/ ١١٢)

عُمِّرتُ دهراً ثم دهراً وقد آمل أنْ آتي على دهري
فإنْ أمت فالموت لي خِيرةٌ من قبل أن أهذي ولا أدري
خمسون لي قد أكملت بعدَما ساعدني قَرنان من عُمري

وأودع بعضهم خلاصة تجاربهم من حكمة الحياة ، فاستسلموا لصرف الدهر وانقادوا لمصائبه ، وآمنوا بسنة الحياة في إستحالة الخلود ، قال الحارث بن أبي وجزة : (العسقلاني : ١/ ٢٩٤)

كبرت وأبلتني الليالي ومن يعش ... كما عشت يصبح ذا وساوس مقعدا
وقصري وإن عمرت عشرين حجة ... فناء ولا يبقي الزمان مخلّدا

وقال ثور بن تلدة الأسدي : (السجستاني : ٨٤)

وإن امرءا قد عاش عشرين حِجَّة ... إلى مائتين كلها هو دائب
لرهن لأحداث المنايا ، وإنما ... يُلهيه في الدنيا مناه الكواذب

وأنكر المعمرون أنفسهم ، وداخلهم الريب ، وهم يرون الهرم يستبد في أوصالهم ، والشيخوخة تأكل أسماءهم فلا يدعون بها ، والطعام يكفيهم القليل منه ، والليل وقد فقدوا حلاوة السهر فيه .

وأفزعهم عزل الحليلة لهم ، وإبعاد بنيهم عنهم ، يقول النمر بن تولب العكّلي : (النمر بن تولب : ٧٠)

لعمري لقد أنكرت نفسي ورابني ... مع الشيب أبدالي الذي أتبدل
وتسميتي شيخاً وقد كان قبله ... لي اسم فلا أُدعى به وهو أول
وزهدي فيكفيني اليسير وأنني ... أنام إذا أمسي ولا أتعلل
وظلعي ولم أكسر وأن حليلتي ... تحوز بنيها في الفراش وأعزل[٤]

وإن كان الهرم قد أوهى قواهم ، فإنه لم يوهن عزائم بعضهم ، وما كان له أن يثنيهم عن بلوغ أمانيهم ، وتحقيق آمالهم في الجهاد ، فهم لا يريدون أن يصدّقوا بأنهم قد شاخوا وعجزوا ، وأن الوهن قد دَب في أوصالهم ، والضعف قد سار في أعضائهم .

وخير من يمثل هذا الفريق من المعمرين جروة بن يزيد الطائي ، الذي كان يكثر الغزو وهو شيخ كبير ، ومن أقواله : (السجستاني : ٦٨ ، ٧٠)

تلوم حليلتي بالغزو جهلاً ... وغير الغزو أولى بالملام
ولولا الغزو كنت كمن يُغادى ... بأنواع الشبارق والمدام[٥]
قليل الهم يزهد في المعالي ... ويرضى بالقليل من الطعام
فهمّي غير همّك ، فاتركيني ... وغزوي ، إنه همّ الكرام
سأغزو الترك إنّ لهم عُرامًا ... وبأسا حين تزحف للزحام[٦]

إلى أن يقول :

وقالـت : قد كبـرت . فقلـت: كلاّ ... وربّ البيت والشهـر الحرام
لقـد أبطلـت ما كبـرى بمدني ... إليّ حليلتـي قدر الحمام
سأغـزو أو أمـوت كذا خفاتاً ... ولا آتـي بداهية وذام

وقال لامرأته مصوراً عذاب عتابها وعذلها له :

وقالـت: قد كبـرتَ ، وقلـتُ حقّا ... كبـرتُ ، فكفكفـي ودَعـي عتابي
عتابـك كلَّ يوم لي عذابٌ ... ومثلي لا يقـرُّ على العذاب
فإن لم تصبـري وكرهـت قُربي ... فدونـك ما أردتِ من اجتنابي

وقال مفتخراً بقوته مع تقدم سنه ، الذي لم يزده إلا تصمياً على القتال والجهاد في سبيل الله :

لعمـري وقـد جاوزتُ تسعـين حِجَّةً ... وتسعـين أرجـو أن أُعمِّرهـا غدا
فما زادنـي صبـري على ما ينوبني ... من الدهـر ضعفـاً لا ، ولا كدَّ لي زِندا
وأرجـو وأخشى أنْ أمـوتَ ولـم أقمْ ... تخُدعنـي بيضٌ ضربنـا بهـا السُّغدا[٧]
أذلـتْ لنـا أركانهـم بعـد عِزّة ... وكانـوا أبـاةً حـين تعلقهـم صَمدا
فلا تهزئـي منـا ولا تتعجبي ... فلسـتُ أرى ممـا قضى الله لي بُدَّا

ولعل من أنجح الصور التي رسمها هؤلاء الطاعنون في السن ، وأروع اللوحات التي أبدعها فنهم الشعري الواقعي ، وهم في تلك السن المتقدمة ، ما انطلقت به ألسنتهم من وصف أحوالهم ، وإبراز آيات الكبر التي تفصح عن حقيقة أعمارهم ، وطبيعة حياتهم التي قد أفناها طول العمر ، وهدها كرّ السنين وتوالي الأحداث .

فعندما دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية قال له معـاوية : (أبـو علي القـالي : ١٢/٢) يا خيار ، كيف تجدك ؟ وما صنع بك الدهر ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي ، وأثكلني لداتي ، وأوهى عمادي ، وشيَّب سوادي ، وأسرع في تلادي .

ولقد عشت زمناً أصبي الكعاب ، وأسرّ الأصحاب ، وأجيد الضراب ، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني ، وأنشأ يقول ، معتمداً الصور المتضادة :

جريت زماناً يرهب القرن جانبي كأني شتيم باسل القلب خادر[٨]
يخاف عدوي صولتي فيهابني ويكرمني قرني وجاري المجاور
وتصبي الكعاب لمتي وشمائلي كأني غصن ناعم النبت ناضر

ثم عرض صوراً مضادة لتلك الصور فقال :

فبان شبابي واعترتني رثية كأني قناة أطرتها المآطر[٩]
أدبّ اذا رمت القيام كأنني لدى المشي قرم قيده متقاصر
وقصر الفتى شيب وموت كلاهما له سائق يسعى بذاك وناظر
وكيف يلذ العيش من ليس زائلا رهين أمور ليس فيها مصادر

فقال معاوية : أحسنت القول ، وأعلم أن لها مصادر ، فنسأل الله أن يجعلنا من الصادرين بخير ، فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب الى الله أن يصدرنا عنها وهو راضٍ .

وحين سأل معاوية خنابة بن كعب العبشمي : كيف نفسك اليوم ؟
قال : يا أمير المؤمنين ، أمتعني الله بك : (السجستاني : ١٠٦)

عليٌّ لسان صارم إنْ هززتُه وُركني صفيف والفؤاد موفَّر
كبرتُ وأفنى الدهر حولي وقوتي فلم يبق إلا منطق ليس يهذر
وبين الحشا قلب كميٌّ مهذب متى ما يرى اليوم العشنر ، يصبر[١٠]
أهمُّ بأشياء كثير فتعتقي مشيَّةُ نفسٍ ، إنها ليس تقدر[١١]
تلعبتِ الأيام بي فتركنني أجَبَّ السنام حائراً حين أنظر[١٢]
أرى الشخص كالشخصين والشيخُ مولَع بقول أرى - والله - ما ليس يُبصر

ولما سئل الهيثم بن الأسود النخعي : كيف تجدك ؟
قال : أجدني قد أبيضّ مني ما كنت أحب أن يسودّ ، وأسودّ مني ما كنت أحب أن يبيض .

ثم أنشد مجموعة من الصور القصيرة المتتابعة فقال :

اسمع أنبئك بآيات الكبر تقارب الخطو وسوء في البصر
وقلة الطعم اذا الزاد حضر وكثرة النسيان لما يذكر

(العسقلاني : ٣/ ٥٨٦)

ويبلغ عدي بن حاتم الطائي غاية الصدق ، ويصل إلى درجة عالية من الجمال الفني ، وهو يعرض أحاسيسه ، فيقول : (السجستاني : ٤٦)

فإنـي قد كبـرتُ ورقَّ عظمي وقـلّ اللحـم من بعـد النقاء
وأصبحـتُ الغـداة أريد شيئاً يقينـي الأرض من برد الشتاء
وطـاء يا بنـي ثُعـل بن عمرو وليس لشيخـكم غـير الوطاء
فإن ترضـوا به فسرور راضٍ وإنْ تأبـوا فإنـي ذو إباء
سأتـرك ما أردتُ لِما أردتم وردُّك من عصـاكَ من العَناء[١٣]

وحين وقع بينه وبين المختار أمر تشاجرا عليه ، همّ بالخروج اليه ثم عجز عن ذلك ، فقال : (المزرباني : ٨٤)

أصبحـت لا أنفـع الصـديق ولا أملك ضرا للشـانـئ الشرس
وإن جرى بي الجـواد منطلقا لم تملك الـكفّ رجعـة الفرس

ويرسم أبو الطمحان القيني صورة رائعة لنفسه ، وقد بلغ من العمر عتيا ، فيقـول : (السجستاني : ٧٢)

حنتنـي حانيات الدهـر حتى كأنـي خاتـل يدنـو لصيد[١٤]
قريب الخطـو يحسِـب من رآنـي ولسـت مقيَّداً أنـي بقيد

إن النماذج الشعرية التي خلفها لنا المعمرون تعد بحق ثروة أدبية ، وبعداً إنسانيا أضافه أولئك الشعراء إلى تراثنا الشعري الواقعي ، فقد كانت تلك الأشعار تعبر عن واقع حياتهم ، وحقيقة أحاسيسهم .

ولكن الملاحظ على تلك الأشعار أنها تفتقر إلى النظرة الاسلامية النافذة ، وعـدم تمكن الشعراء من تمثل الأفكار التي دعا إليها الاسلام بشـأن حقيقـة الحياة والموت ، وصلـة الأعمار بالارادة الالهية . مع معالجة القرآن الكريم لهذه القضية في مثل قوله تعالى :
« وما يعمّر من معّمر ، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير » (سورة فاطر : ١١)

وتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال :
ألا أنبئكم بخياركم ؟
قالوا : بلى يا رسول الله .
قال : أطولكم أعمارا في الاسلام اذا سدّدوا . (الابشيهي : ٣/ ٣٦)
وقال الحسن رضي الله عنه : أفضل الناس ثوابا يوم القيامة المؤمن المعمر (الابشيهي : ٣/ ٣٦)

الهوامش :

(١) المعمرون للسجستاني ـ المقدمة . الدد : اللهو واللعب .
(٢) أنظر البخاري « كتاب الدعوات »
(٣) مهران وتستر : من أيام المسلمين المشهورة في الفتوحات ببلاد فارس .
(٤) الظلع : الغمز في المشي لعاهة في الرجل .
(٥) الشبارق : الطعام . فارسي معرّب .
(٦) العرام : الشدة والقوة .
(٧) السغدا : جيل من الناس . وتخذعني : تضربني .
(٨) الشتيم : الأسد العابس . الخادر : الأسد المقيم في خدره .
(٩) رثية : ضعف .
(١٠) العشنزر : شديد الخلق من كل شيء .
(١١) يعتقي مشيته اذا أعجلها .
(١٢) أجب السنام : مقطوعه بعد أن يأكله الرحل فلا يكبر .
(١٣) النقاء : فقدان العظم لمخه . والوطاء : خلاف الغطاء أي ما يفترش .
(١٤) المخاتلة : مشي الصياد قليلا قليلا في خفية لئلا يسمع الصيد حسه .

المصادر :

ـ الأشيهي . المستطرف في كل فن مستظرف . مصر : ١٩٥٢ .

ـ ابن الأثير . أسد الغابة في معرفة الصحابة ، طهران : ١٣٧٧ .

ـ ابن تولب ، النمر . شعر ، تحقيق د . نوري القيسي . بغداد : ١٩٦٩ .

ـ ابن ربيعة ، لبيد ـ الديوان ـ تحقيق ـ د . احسان عباس ـ الكويت : ١٩٦٢ .

ـ ابن كثير . تفسير القرآن . مصر : ١٩٥٤ .

ـ الأصفهاني ، أبوالفرج . الأغاني . مصر : دار الكتب .

ـ البخاري . الصحيح . القاهرة : طبع محمد علي صبيح وأولاده .

ـ الزمخشري . الكشاف ـ تفسير . طبعة مصر .

ـ السجستاني . **المعمرون والوصايا** . مصر : ١٩٦١ .

ـ الطبري . **جامع البيان** . تفسير . مصر : ١٩٥٤ .

ـ العسقلاني ، ابن حجر . **الإصابة في تمييز الصحابة** . مصر : ١٣٣٩ .

ـ القالي ، أبوعلي . **الأمالي** . مصر : دار الكتب ، ١٩٢٦ .

ـ المرزباني . **معجم الشعراء** ، مصر : ١٩٦٠ .